فى قرية أبى النمرس

للأديب محمد عبد الكريم

كنا فى صباح الأحد حين قصدنا الى دار الجمعية حيث قدمنا الدكتور أحمد حسين الى حضرات الزائرين الذين شرفنا أن نعرف فيهم جناب المستر كريج والمسيو فانسينو مدير البنك العقارى والمستر لويد المستشار بالسفارة البريطانية والمستر جونس مدير شركة الأسمنت والدكتور ليفى مدير الاتحاد المصرى للصناعات والدكتور نجيب يوسف الأستاذ بكلية التجارة والمسيو ديبونو وغيرهم من أعلام الاقتصاد بالبلد .

وانطلق الزائرون فى رتل من السيارات الى ظاهر المدينة حتى اذا جاوزنا مدينة الجيزة عرجنا يمنة مجتازين قنطرة صغيرة أدركنا بعدها غايتنا ، هذه قرية أبى النمرس ببيوتها الريفية الصغيرة ، وهذا طريقها الرئيسى طريق متسع فى غير استقامة تحف به المساكن وقليل من الحوانيت ، ثم المدرسة الالزامية بتسميها للبين والبنات ، ومبانى القرية بسيطة بعضها من الاجر والدبش ، وبعضها من اللبن ، وهى تتوسط زماما من الأراضى الزراعية مساحته ألفا وخمسمائة فدان ثلثها من النخيل ، وتضم (أبى النمرس) عشرة آلاف ساكن يعملون بالقرية وخارجها .

فى القرية :

تركنا سياراتنا فى ظاهر القرية ومضينا إلى حيث يقوم المركز الاجتماعى وقد استلفتت حركتنا أنظار الأهلين فتجمعوا حولنا يتساءلون عن غايتنا فى خوف وتوجس لم يلبثا أن اختفيا أمام تلطف الزائرين ، وقد أبى المستر لويد إلا أن يحيى الأهلين بالعربية ، وتخلفت مدام ليفى لتجالس القرويات .

زرنا المركز الاجتماعى الجديد ولما يكتمل بناؤه بعد ، مبنى صغير قال لنا المرشد إنه معد لإقامة المركز الاجتماعى والمستوصف وبه مكان لتعليم الأمهات والفتيات بعض ما يهمهن من صناعات منزلية والمكان كما شاهدناه صغير لا يتسع لما تتطلبه قرية كبيرة ، ويجاور المستوصف فضاء صغير جعل المرشد منه مشتلا لنباتى التوت والبايريثرم Pyrithrum وهو نبات يستخدم فى صناعة المواد القاتلة للحشرات ويقوم المرشد بتوزيعه على الفلاحين لزراعته بأرضهم رغبة فى الانتفاع به لمقاومة الآفات التى تصيب زراعاتهم .

ويجاور المركز مستنقع شاهدنا فيه بعض أسماك الجمبوزية الصغيرة التى تعنى وزارة الصحة بإطلاقها فى المستنقعات لتبيد يرقات البعوض التى هى غذاؤها وأثر هذه الأسماك فى إبادة البعوض كما شاهدنا فى القرية وفى غيرها أثر ضئيل ، وعندنا ألا علاج لأمر البرك غير ردمها كما سنفصل ذلك فى موضع آخر من هذا المقال

هذا مريع . . .

C'est terrible ! هذا ما قاله جناب مدير البنك العقارى ورددده الكل حين أطلعهم طبيب المركز الاجتماعى على حقيقة حال القرية التى يمكن اعتبارها صورة لما هو موجود بكافة قرى القطر ، بل إن أبا النمرس على سوئها تفضل كثير من القرى بما يفيده موقعها المجاور للعاصمة واشتغال بعض أهليها فى النجارة و إليك بيان ما أسفر عنه الفحص الطبى الشامل الذى قام به طبيب المركز :

مائة فى المائة من الأهلين مصابون بالانكلستوما .

٨٥ » » » بالبلهارسيا .

٣٠ » » » بالزهرى .

٣٠ » » » بالقراع بسبب ميكروب RingWormInfection

هذا عدا البلاجرا والسل والأنيميا والجرب وكلها ناتجة عن قلة التغذية والقذارة المسببين من الفقر والإملاق .

ويقوم طبيب المركز الاجتماعى بعلاج مختلف الأمراض و بالجراحة البسيطة كما يقوم بفحص طبى شامل للأهلين أنهى منه ٨٧ حالة ، وهو رقم نراه ضئيلا اذا قيس بأهمية هذا الفحص وبتعداد القرية الكبير، كذلك يقوم الطبيب بأخذ عينات من دم الحوامل وتحليلها وقد أفلح فى علاج ١٥ فى المائة من حالات الزهرى وتعاون الطبيب زائرة صحية وثلاث قابلات، وتقوم الزائرة بالقاء دروس على الأمهات فى الحياة الصحية ووسائل الوقاية والاسعاف وهى تعلم الأمهات فوق ذلك صناعات الحياكة والتطريز وأشغال الابرة وقد ، شاهدنا معروضاتهن بمقر المستوصف، وترصد أرباح بيع المصنوعات فى صندوق الاحسان ، وقد نفح بعض حضرات الزائرين هذا الصندوق بشىء يشكر من عطائهم .

وتعاون وزارة الصحة برجالها طبيب المركز الاجتماعى فى تحسين الحالة الصحية، وقد شاهدنا فى هذه القرية جانبا من حملتها الفعالة فى إبادة القمل بالانتقال الى داخل البيوت والقيام بحلاقة الرؤوس والاشراف على تطهير الأثاث وقد نجحت حملة إبادة القمل نجاحا كان من أثره خلو القرية تماما من أى إصابة بالتيفوس .

أمية قاسية فاشية :

وفى بلد يناهز تعداده العشرة آلاف ساكن لاتجد فيها غير سبعمائة يعرفون القراءة والكتابة، عجبنا ولكن سرعان ما يبطل العجب حين علمنا أن ليس هناك غير مدرسة أولية واحدة فيها ثلاثمائة غلام ومائتان وسبعون بنتا، أما التعليم الابتدائى فلا أثر له بأبى النمرس، بل إن قانون الالزام ذاته معطل هناك لعدم وجود الفصول الكافية، وليس العيب عيب الأهلين فهم كما

شاهدناهم راغبون فى العلم وقد أنشأوا بتعاونهم قسما ليليا بالمدرسة الأولية انتظم فيه خمسة وستون طالبا تتراوح أعمارهم بين الحادية والعشرين والخامسة والأربعين، وقد لبث هذا القسم يعمل ستة شهور، ولكنه أقفل بسبب عدم اعطاء مكافأة للمدرسين المتطوعين، ولم يكن مايدفعه كل طالب وهو خمسة قروش شهريا ليغطى نفقات الانارة والنظافة بهذا القسم ، وحالة مثل هذه جديرة بالاهتمام ، فالتعليم الليلى هو أنجع الوسائل لمكافحة الأمية ومكافأة يسيرة تعطى للمتطوعين تجعل من كافة المدارس النهارية بالريف معاهد ليلية لتعليم الكبار ولقد شكى إلى الاهلون حرمانهم التعليم رغم حاجتهم اليه فى حياتهم كتجار وزراع .

انتقلنا بعد ذلك إلى ندوة القرية وهى رواق فى بناء مجاور للمستوصف جهز بمقاعد وأرائك وبه مكتبة صغيرة بها قليل من النشرات ومذياع ويجتمع الأهلون بالندوة كل مساء يطالعون الصحف والكتب ويستمعون الى المذياع ويلتقون بالمرشد يناقشونه فى كل ما يهمهم — وقد عنى المرشد بتنظيم فريق اشبال (كشافة) من أبناء المدرسة كما نظمت الزائرة الصحية جماعة من البنات تعليمهن اصول التدبير المنزلى وتكل الى بعضهن مراقبة نظافة بيوت القرية وطرقاتها لمراعاة الأصول الصحية .

صناعات جديرة بالتشجيع :

ولقد كان من أثر كثرة زراعة النخيل الذى يشغل ثلث زمام القرية أن السكان عنى بصناعة منتجاته فهم يحيلون سعف النخيل خيوطا رفيعة تعرف بالكرينه وهى المادة التى تحشى بها المقاعد والأرائك ثم هناك صناعة الليف والتمر وكلتاهما صغيرة محدودة، أما الليف فينسجون منه مشايات ومماسح للأرجل — ويقيم بالمركز الاجتماعى معلمان يقومان بتدريب ستة من أبناء القرية على هذه الصناعة التى هى من البساطة بحيث يمكن للاعمى مزاولتها، ولقد فطن لهذا الأستاذ رضوان راضى مدير معهد العميان بالزيتون حين شاهد هذه الصناعة فى أبى النمرس وعمل على ادخالها فى معهده. وصناعة مشايات الليف ومماسح الأرجل رابحة وهى تدر على الصانع كسبا يوميا لا يقل عن ثلاثين قرشا ونسبة الربح فيها خمسون بالمائة ويعطى المركز للمعلم مكافأة قدرها خمسون قرشا عن كل ولد يقوم باتمام تدريبه وقد أمكن للمركز برأسمال قدره ٣٥ جنيها أن ينشئ ويدير هذا المصنع الصغير — أما صناعة التمر المضغوط (العجوة) فرائجة ويعنى المركز بها عناية تذكر وهم ينظفون التمر ويستخرجون النوى ويعبئونه فى الخوص وكانوا الى وقت قريب يعبئونه فى ورق (السلوفان) قبل ارتفاع ثمنه — والتمر من أغنى الثمار بالعناصر المغذية وهو خير غذاء للضعيف وقد ذكر لنا طبيب المركز الاجتماعى أنه يعالج به البلاجرا وأنه يعطى نتائج باهرة وكانت النتيجة مائة فى المائة بين تلاميذ المدرسة ويمكن أن تروج فى أبى النمرس صناعة الخيوط الكتانية إذا عنى الفلاحون بزراعة الكتان ويقوم أحد الأهلين بصناعة الدوبارة وهو يستهلك فيها كل ما يزرع بالقرية من كتان .

مائة جنيه تنصف قرية بأسرها

نعم مائة جنيه ينفقها بعض سراتنا فى اعداد وليمة للخلان أو فى مهرة بين الاخوان انهضت وانعشت قرية بأسرها . ففى عام ١٩٢٩ صحت عزيمة بعض الأهالين فى قريتنا هذه على انشاء جماعة تعاونية اكتتبوا لها برأسمال متواضع يبلغ مائة جنيه — أتعلم ماذا فعل هذا المبلغ الصغير حين أحسن استغلاله — لقد تمكن الأهلون فى خلال خمسة عشر عاما من أن ينموا هذا المبلغ وأن يتدرجوا فى الانتفاع به حتى غدت الجمعية التعاونية التى قامت عليه هى الهيئة المنوط بها إمداد القرية بكل ما تحتاجه من مؤن وقد بلغ قيمة ما باعته الجمعية ذات المائة جنيه فى العام الماضى وحده ٨٨٠٠ جنيه وقد دفعت للساهم الذى اكتتب بخمسين قرشا ربحا بلغ فى العام الماضى وحده ٣٧ قرشا منها ٣٤ قرشا من عائد أرباح الشراء أى بنسبة ٧٥ ٪ وهذا مثل رائع لنجاح استغلال المال بالاكتتاب فى الجمعيات التعاونية لسوقه لهؤلاء الذين يودعون اموالهم دون استغلال فى المصارف وفى صندوق التوفير بربح تافه أو بغير ربح — أما خدمات الجماعة التعاونية ذات المائة جنيه فتتخصص فى أنها جنبت فى هذه الأزمة كل البلدة متاعب التموين التى تشترى من وزارة الزراعة بمعرفة المرشد كل ما يحتاجه الفلاحون من بذور وسماد وتحصل لهم كذلك على كل ما يلزم القرية من سكر وزيت وشاى وكبريت وزجاج للمصابيح .

وهى تقرض المنتسبين اليها مبالغ محدودة بدون أرباح وتعاون الجمعية التعاونية صندوق الإحسان الذى قام بجهود المشرف والزائرة الصحية ، وصندوق الإحسان هو الذى يستغل مصنعى الليف والتمر المضغوط وهو يعنى بتقديم الكساء كل عام للفقراء وقد كست الجماعة فى العام الماضى ١٢٠ نفسا وهى تشترى المباعن الممتاز وتوزعه على الأسرات الفقيرة وقد وزعت فى العام الماضى ١٤ عنزة بثمن يسدده الفلاح من بيع متاح العنزة وهى تعطى سلفا صغيرة كرأسمال للعدمين وتستردها من أرباح أعمالهم ، وهناك نساء وأولاد أوجد لهم صندوق الإحسان أعمالا برءوس أموال لا تتجاوز العشرين قرشا يشترى بها المعدم (فولا نابتا) أو حلوى يبيعها فيجنى من ربحها ما يكفيه ذل السؤال .

الزراعيون كمرشدين اجتماعيين :

وقفنا فى جولتنا بأبى النمرس وفيما لمسنا من عمل المرشد الاجتماعى فيها على حقيقة نقررها مقسطين غير مفرضين هى أن أصلح من ينهض بالارشاد الاجتماعى بالريف هم خريجى كلية الزراعة وحسبنا أن نذكر بعض آثار مرشد أبى النمرس وهو زراعى متعلم فى النهوض بهذه القرية :

فأعماله تتجه إلى غرضين : الأول تحسين طرق الزراعة والثانى زيادة موارد الفلاح .

أما تحسين طرق الزراعة فسبيله إرشاد الفلاح بواسطة الزراعات النموذجية التى يجريها المرشد فالمزرعة الارشادية للذرة أتت بمحصول ١٣½ إردبا وهى فى أرض الأهالى لا يتجاوز محصولها الثمانية أرادب، ومزرعة القطن أنتجت سبعة قناطير ونصف من قطن جيرة ٣٦ وهى فى المتوسط لا تتجاوز أربعة، هذا إلى مقاومة الآفات بأفضل السبل فعند ما انتشرت دودة القطن قام المركز الاجتماعى بالمقاومة بطريقة تعاونية لم تكلف الفدان أكثر من ٥٥ قرشا ، ولما تفشى مرض البياض فى الفصيلة القرعية أبيد نهائيا بالتعفير بالكبريت ، وقد استورد المركز ٣ أطنان من الكبريت من شركة الصناعات الامبراطورية وقد أودع المرشد فى النادى مجموعة حشرية يقف الأهلون منها على تطور الحشرات وأنواعها ليقاوموها .

وأما زيادة الموارد ، وهذا من أهم أسباب تحسين حال الفلاح ، فقد سلك المركز فى هذا سبيلا قويما إذ قام بتوزيع خمسمائة شجرة خشبية ومائتى شجرة توت وأكثر من ثلاثة آلاف فرخ من الدجاج (كتكوت) كما اتفق مع قسم الطب البيطرى على أن يزور الطبيب القرية مرتين كل شهر للعلاج والارشاد كما استحضر المركز من وزارة الزراعة (فخاين) من الجاموس لتحسين انتاجه وهناك مشروع لجمع ديوك الدواجن من الأهلين و إعطائهم ديوكا قيومية بدلا عنها ، كذلك قام المركز باستيراد بذور القطن والقمح والذرة والبرسيم الجيدة من قسم الاكثار بوزارة الزراعة ووزعها على الفلاحين بوساطة الجمعية التعاونية ، كما قام بتعميم زراعة الخضر بالبلد فبعد أن كانت مساحة أرض الخضر مائة فدان أصبحت اليوم سبعمائة وأدخل فى القرية زراعات جديدة كالبسلة والكرات والخرشوف، وقد ساعد على ذلك سهولة تصريف الخضر لقرب البلد من العاصمة .

ماينبغى أن يقرن بالإرشاد :

فى دراستنا لتجربتى المنايل وأبى النمرس جاونا أمر المركز الاجتماعى بنوعيه حكومى وغير حكومى .

ولعل أظهر ما لمسناه من نقص أن التجربتين لم تعرضا لمسألة هى بحق أولى المسائل فى اصلاح القرية وهى مسكن الفلاح ومرافق حياته من ماء نقى ودورات صحية للفضلات وليس يجدى أن نحض الفلاح بالارشاد لالتماس أسباب الصحة وهو مقيم فى تلك المقابر التى لا شبه لها بالمسكن ولا تمت إلى الصحة بصلة — ولقد شغلت مشكلة الصحة القروية الكثيرين و يؤسفنا أن نقرر أن كل المشروعات التى قدمت متعذرة إن لم تكن مستحيلة التنفيذ وحسبنا أن نشير الى البارز من هذه المشروعات فلدينا مشروع المرحوم عبد الواحد بك الوكيل الذى قدر لتنفيذه ما يقرب من مائتى مليون جنيه تنفق فى خمسين سنة وسبيله ازالة القرى رأسا على عقب لتخلفها قرى صحية .

وهناك مشروع وزارة الصحة فى سبتمبر عام ١٩٣٤ وهو تتمة للبرنامج الصحى الذى رسمه المرحوم شاهين باشا عام ١٩٢٧ وقد قدر له ٣٢ مليونا من الجنيهات .

ثم مشروعى الدكتور ابولس بولس ووليم حنا اللذين يكفلانا ٣٠ مليون جنيه فى ٣٠ سنة فاذا راعينا أن تكاليف هذه المشروعات فضلا عن انداحها قدرت على أساس مستوى سعر ما قبل الحرب وهو سعر لا ينتظر أن يعود بحال ، ازاء ما أوجدته الحرب فى مختلف الشعوب من تشريعات مالية وضرائب غالية منها تعويض ما بذل ورفع مستوى الأجير رأينا أننا حيال تقديرات ستظل احلاما ما لم نفكر فى سبيل آخر — وعندنا أن السبيل العملى للنهوض بالقرية هو أن تعد المراكز الاجتماعية بعد تعميمها تعد هذه المراكز متحدة مع أقسام الهندسة القروية خرائط جديدة لكل قرية يراعى فيها تعديل تخطيطها مع زيادة مساحة جديدة تضاف من أملاك الدولة أو تشترى بالمال وتكون هذه المساحة كافية لتعويض ما يقتضيه التخطيط الجديد للقرية — على أن يبدأ بشق الطريق الرئيسى ثم ما يقطعه بعده من طرق شيئا فشيئا فاذا أراد فلاح بناء بيت جديد أو إعادة بناء ما يتهدم الزم بمراعاة خط التنظيم المعتمد وأن يخصص كل عام اعتماد كبير للاصلاح القروى تخصص فيه لكل قرية مبالغ محدودة تعطى للمجلس الذى يناط به الاشراف عليها على غرار مجالس المقاطعات الانجليزية Commitees Rural Community التى وكل اليها أمر قرى بريطانيا وناشت من معونة الحكومة هناك ما جعل القرية جنة يتمنى الكل العيش فيها لما يجدونه بها من جمال ونضرة وهدوء — إن لنا فيما فعله الانجليز ببلادهم اسوة تكفينا مشقة كل تجربة فالحال التى تشكو منها قاساها الانجليز قبلنا فحلوا مشكلة المسكن الصحى بقانون المساكن الزراعية Rural housing Act الذى صدر عام ١٩٢٦ وتقررت بموجبه اعانات مالية لمجالس المقاطعات الزراعية معونة لتشييد المساكن الصالحة التى تقام طبقا للمواصفات الصحية وعالجوا مسألة ازدحام المسكن الريفى بقانون Overcrowding Act

إن ما تخلفه الحروب بعد انتهائها من كساد زراعى يحتم علينا إعداد مشروعات كبيرة لإصلاح القرية وتحبيب الحياة فيها ولقد أوضح الأستاذ على فهمى فى كتابه "الحياة الريفية فى بلاد الانجليز بعض ما قاساه الزارع الانكليزى بعد الحرب الماضية من ضنك لم يخففه سوى التشريعات التى عملت الحكومة هناك على تنفيذها و إذا كانت الأزمة الزراعية قد هبطت بالفلاح الانجليزى إلى حد مؤلم فقد جربنا هذا فى بلادنا وشهدنا كيف كان أثر هذه الأزمة على فلاحينا .

يقول الدكتور ابراهيم بك رشاد فى كتابه "كيف نحبب القرية المصرية إلى الفلاح والمالك" إن العناية بالقرية لا يفيد فى تحسين حال الفلاح الصحى والاجتماعى فحسب

بل ويحل مشكلة أخرى هى مشكلة النزوح من الريف Rural Expdes وهى المشكلة التى عرفت البلاد الغربية كيف تحلها بتجميل القرى حتى أن الأثرياء أنفسهم لم يغيروا إقامتهم بها فكان لهم دواما بالقرية مقر Country Seat علاوة على مقرهم الذى تستلزمه اعمالهم بالمدينة . Town Resietence

الإرشاد الاجتماعى فى ضوء التجارب :

ليس فى مقدورنا أن نقرر أن الإرشاد الاجتماعى قد أتى بثمره كاملا فى الريف وليس فى هذا ما يؤخذ على القائمين به فالمرشدون كما رأيناهم مجدون عاملون ، ولكن هناك أسبابا عامة نرى من واجبنا توجيه نظر من بأيديهم الأمر إليها :

الأول : قلة موارد الأهالى الذين يعجزهم فقرهم عن تلمس أسباب النظافة والصحة فى مساكنهم ومعيشتهم ولا سبيل الى ذلك إلا بإلزام المالك الكبير بالمساهمة فى إنهاض قريته وذلك بتشريع يفرض ضريبة تصاعدية على القادرين من الملاك ويخصص إيراد هذه الضريبة لصندوق الإصلاح والإحسان بالقرية .

الثانى : التعليم وسبيله إنشاء المدارس الريفية الزراعية والصناعية والأقسام الليلية .

الثالث : سوء مسكن الفلاح وقد بينا علاجه فيما أسلفنا .

الرابع : شق الطرق الزراعية وردم البرك وهو يقتضى تعاون الفلاح والحكومة كما ينبغى أن نشير إلى ما لاحظناه من تقصير فى تنفيذ قانون ردم البرك الذى ينص بحرمان كل مالك لمستنقع أرضه ما لم يقم بردمها ، وعندنا أن يسارع بحصر المستنقعات التى لم تردم وأن يسخر المسجونون بإشراف جنود الجيش ومعونتهم لإتمام الردم وبهذا نجنب البلاد شرور البعوض وأوبئته التى تهدد كياننا وتجنى الدولة تعويضا لما تبذل أرضا تضاف لأملاكها حسب ماقضى به القانون — وأخيرا نرى أن تعمم المراكز الاجتماعية التى نقوم على خريجى كلية الزراعة إذ ليس لدينا حتى الساعة غير أحد عشر مركزا فى قطرنا به ٤٠٠٠ قرية .

ونحن لانشك فى أن ولاة الأمور سوف يعنون بإقامة هذه المراكز مستفيدين بما بذل من الخيرين ، وليس لنا ما نقول فى بطء العمل الإصلاحى إلا أن نردد كلمة سمعناها من الأستاذ ديبونو أحد أعضاء الجمعية خلال هذه الزيارة من أننا لو سرنا فى إنشاء المراكز الاجتماعية بنسبة ١١ مركزا فى كل أربع سنوات لاحتجنا الى مائة وثلاثين سنة لنعمم عملا يجب أن يعمم حالا باعتباره من لزم ضروريات الفلاح .

محمد عبد الكريم